أثر اللسانيات في الدرس اللغوي الحديث[1]

أ.د. أحمد محمّد قدّور *

تعرض هذه المحاضرة لأثر اللسانيات في الدرس اللغوي الحديث بدءاً من منتصف القرن الماضي حين ظهرت آثار التدريس في الجامعة المصرية (1908م)، إذ سعى أوائل المستشرقين الذين وفدوا للتدريس فيها إلى إدخال معطيات الفيلولوجيا واللغات السامية وعلم اللغة الغربي إلى درسنا اللغوي. وقد ألّف عدد من هؤلاء كتباً تضمّ تطبيقاً لما تقدّم[2]. على أنّ هذا النحو من الاتصال بين الدرس الغربي والعربي لم يكن يثير إشكالاً واسعاً، إلا بُعيد منتصف القرن الماضي كما ذكرنا. فقد تنبّه عدد من الدارسين إلى تجنّب الخلط بين هذين الدرسين لما ينطوي عليه ذلك من بلبلة وانحراف عن مقاصد الدرس العربي.

ومعروف أنّ اتساع الترجمة وتوظيف المعطيات اللسانية أحدث ((ضجّة)) تردّدت أصداؤها في الجامعات ومراكز الإعلام والصحافة، وأدّت لأسباب كثيرة إلى مشكلة أضيفت إلى مشكلات الثقافة العربية، ولا سيّما موضوع التجديد وحدوده، واتصاله بموضوع الهويّة والتراث. وقد تعدّدت تبعاً لذلك المواقف الرافضة أو المؤيّدة لدخول اللسانيات وعلم اللغة درسنا اللغوي[3]. على أننا نرى أنه لا يجوز أن تبقى هذه المسألة خاصة ومسألة التراث والتجديد عامة نهباً موزعاً بين وجهتي نظر بسيطتين ومفرطتين في الحماسة[4]. ولذلك اخترنا منذ عقود مضت جملة من المعايير التي

---

* عضو مجمع اللغة العربية بدمشق.

[1] محاضرة ألقيت بدعوة من السيد رئيس مجمع اللغة العربية بدمشق بتاريخ (28 من أيلول، لعام 2016م) في قاعة المحاضرات في المجمع الزاهر.

[2] من هؤلاء ولفنسون في كتابه ((تاريخ اللغات السامية)) 1929م، وأغناطيوس جويدي في كتابه ((مختصر علم اللغة العربية الجنوبية)) 1929م وبرجشتراسر في كتابه ((التطور النحوي للغة العربية)) 1929م أيضاً. هذا فضلاً عمّا ترجم لبروكلمان ونولدكه وموسكاتي وفندريس وماييه وغيرهم. أو وضعه عرب كعبد المجيد عابدين وخليل يحيى نامي وعلي عبد الواحد وافي وإبراهيم السامرائي والسيد يعقوب بكر ورمضان عبد التواب ومحمود فهمي حجازي وغيرهم.

[3] اللسانيات هي ترجمة للمصطلح الفرنسي (Linguistique) وما يشبهه في اللغات الأوربية، وكذلك الألسنية وعلم اللغة، وإن كنّا نفضل مصطلح اللسانيات على ما عداه. انظر: قاموس اللسانيات لعبد السلام المسدّي، ص69 وما يليها.

[4] انظر: كتاب القدس للدكتور حسام الخطيب، ص163-167.

تحكم الموقف المختار من اللسانيات بوصفها أداة بحث وموضوعاً جديداً من غير أن نكون خاضعين بالضرورة لأي توجّه معرفي ينحاز إلى المركزية الأوربية من جهة، ويهوّن من علوم العربية وخصائصها من جهة أخرى[5]. ومن أبرز هذه المعايير التي باتت تلقى تأييداً مطرداً عبّرت عنه مؤلفات ورسائل جامعية وبحوث كثيرة:

1- ضرورة التعرّف الصحيح لعلوم اللسانيات من مصادرها العلمية الأصلية.

2- توظيف مناهجها وثمرات درسها في علومنا اللغوية بالقدر الملائم، ومن غير مبالغة أو تعميم، وضمن حدود الوعي الحضاري للأمة وخصائصها.

3- تقديم ابتكارات علمائنا القدامى للدارسين من عرب وأجانب، ونقلها إلى اللغات الأجنبية، وتصحيح الأخطاء التي وقعت فيها اللسانيات حين عرضت لتاريخ الدرس اللغوي (العالمي)، وما انطوى عليه ذلك من جهل أو تجاهل.

4- إنشاء علوم لغوية عربية جديدة على هدي اللسانيات على سبيل الإضافة والرفد، ومن غير قصد إلى الاستهانة بما توصّلت إليه علومنا الأصلية.

5- تجديد المصطلحات اللغوية ونشرها بين الدارسين، وتوظيفها في (تطوير) اللغة العلمية وإغنائها.

والخلاصة هي أنّ اللسانيات وغيرها من مناهج أو مدارس أو علوم أجنبية ينبغي أن تكون عامل تجديد وإغناء يؤخذ بالكثير من الحيطة والوعي لكي تسلم لنا نتائجه وما تنطوي عليه من فائدة لا تنكر.

****

ومن الضروري بمكان كلّما كان قصدٌ إلى الموازنة أن نقف على جملة من الفروق التي يجب أن تراعى بين اللسانيات والفيلولوجيا من جهة، وعلوم اللغة العربية من جهة أخرى حتى لا يقع الدرس في تبسيط مخلّ بأصول البحث قد يؤدي إلى نتائج غير مقصودة غالباً[6]. من ذلك –

[5] انظر: مناقشتنا لأثر اللسانيات في الدرس اللغوي العربي ومناهجه في المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، العدد (27) لعام 1987م.

[6] انظر: بحثنا ((بين اللسانيات وعلوم اللغة)) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (85)، الجزء الرابع لعام 2010م.

ونحن نقتصر هنا على الأسس العامة – أنّ اللسانيات علم أوربي حديث ترجع بدايته إلى القرن التاسع عشر، وهو مختلف عن علوم اللغة القديمة لدى الأوربيين أنفسهم. أما علومنا فقديمة وترجع إلى القرن الثاني للهجرة وقد سلخت من عمرها وتطورها قروناً وما زالت تفي بحاجات الدرس عندنا. وربما كانت النظرة اللسانية إلى علوم الغرب القديمة هي المسؤولة عن النظرة التي عبّر عنها بعض اللسانيين من الأجانب والعرب تجاه علومنا اللغوية من غير إدراك للفرق الواسع بين مقتضى النظرتين السابقتين.

واللسانيات في حدودها المعرفية علم عالمي الغاية، هدفه دراسة اللغة البشرية واستخلاص الكليات المشتركة بين مختلف اللغات قديمها وحديثها. أما علومنا فتدرس أصلاً لغتنا العربية ولا سيّما الفصحى وتواكب أدبها، مع ضروب من التجديد الداخلي الذي يبقيها صالحة لأداء مهامهّا عبر العصور.

وأثمرت اللسانيات عبر مسيرتها مناهج ومدارس واتجاهات محدّدة بأطر معرفية. أما مناهجنا فهي كامنة في طرق التناول وأصول التلقي والتقعيد وحدود المستوى الفصيح، ممّا يقرّبها من المنهج الوصفي بداية. إذ حدّد أوائل اللغويين شروطاً للمقبول تدوينه ودرسه من جهات الزمان والمكان والمستوى، وتوسّلوا إلى ذلك بالملاحظة والسماع والنقل من غير تدخّل أو تحكّم. أما ما طرأ بعد ذلك من ضروب التعليل والاتساع في الأثر المنطقي والثقافة العقلية فأمر تالٍ جاء بعد تدوين اللغة واستخلاص قواعدها وضبط أصولها. وليس متوقّعاً، بل ليس مطلوباً، أن تُدرس لغتنا في ذلك الزمن البعيد بمناهج جديدة توفر لها ما لم يتوفر لأي علوم مماثلة لها سابقاً، كاكتشاف اللغات المنقرضة وقراءة النقوش وتطوّر وسائل النقل والانتقال والتسجيل والأدوات الأخرى كالحواسيب وأجهزة التصوير والمخابر الصوتية ونحوها. والعبرة دائماً بصحّة النتائج، وإن اختلفت الوسائل مع مراعاة الظرف التاريخي الذي شهد نشأة علومنا، وما طرأ عليها بعد ذلك من تطوّر علمي متدرّج.

وتهتمّ اللسانيات أساساً باللغة المنطوقة وباللهجات قبل الفصحيات، لأنّ حياة اللغة تتجلّى في المتداول المتحوّل لا في المدوَّن الثابت. على أنّ الحال عندنا تنطوي على فروق مهمّة تُطلب مراعاتها ولا سيّما الموضوع المعروف لدينا بالعامية أو العاميات. ولذلك فإنّ جزءاً كبيراً من الشكّ في اللسانيات متضمّن في هذا السعي اللساني إلى إيثار المنطوق كما هو على المكتوب أو المحاكي له، ممّا ندعوه لغة فصحى أو فصيحة. واللغة عندنا ليست وسيلة للتفاهم والتعبير فحسب،

بل هي عنصر مهمّ في الهوية المتمثلة في العروبة والإسلام عبر الزمان والمكان، ممّا يجعلها فريدة بين لغات العالم بقدمها وتطوّرها وحياتها[7]. ولذلك باءت محاولات المستشرقين (العلمية) بالفشل حين طبّقوا على العربية الفصحى ما زعموه من قوانين النشوء والتطوّر والتشعّب محاكاة لما رأوه في اللاتينية وغيرها. أما ما واجهته لغتنا منذ بداية عصر النهضة الأدبية من اتهامات، ورُميت به نقائص، فأمره معروف ودوافعه مفضوحة ومواجهته واجبة.

وللسانيات ولا سيّما التطبيقية منها فروع متعددة ظهرت نتيجة اتصالها بالعلوم الأخرى وأثرها فيها، فضلاً عن فروعها النظرية التي درست اللغة لذاتها ومن داخلها كعلم الأصوات (أو علوم الأصوات) والمورفولوجيا (علم الصرف) والتركيب (النحو أو القواعد) والدلالة والمعجم والمصطلح. أما علومنا فقد اقتصرت على الدرس اللغوي، وإن كانت تساعد غيرها من العلوم الإسلامية، على أنها علوم آلة، كما هو معروف في مصطلحاتنا.

وليس للسانيات من حيث المبدأ ارتباط بلغة معيّنة أو دين أو ثقافة أو قوم دون آخرين، وإن استُعملت في تاريخها وبعض مدارسها وجهاً للمركزية الأوربية، ومقياساً يجب تطبيقه على لغات العالم عامة، وعلى لغات (الشرق) والعالم (الثالث) خاصة من غير مراعاة للفروق.

واللسانيات حملت لنا مضامين الفيلولوجيا فأحدثت التباساً أثّر في مفهوم ((فقه اللغة)) عندنا. مع أن الفيلولوجيا معرفة تكاد تخصّ اللغات الغربية القديمة، وتحلّل النصوص من الوجهة الثقافية وبشيء من المقارنة ممّا لا يسمح لها بأن تكون علماً عاماً يصحّ اقتباسه وتوظيفه[8]. ولذلك كانت ترجمة الفيولوجيا بـ(فقه اللغة) خطأً علمياً جسيماً لما يحدثه من بلبلة وخلط بين العلوم القديمة والحديثة. وقد اخترنا أن نستعمل الفيولوجيا دخيلة مَنبهةً على الأصل والفرق[9]. وفقه اللغة العربية معرفة أو علم يخصّ العربية وحدها، وهو ذو قصد واضح لدرس اللغة جملةً تاريخاً وتطوّراً وخصائصَ عامة، وبيان دلالات الألفاظ وفروقها، وما فيها من دقّة وإرهاف وإصابة للغرض، وما ضمّته هذه اللغة من مظاهر الإتقان والصنعة[10]. ولذلك نرى إبقاء فقه اللغة العربية مستقلاً عن اللسانيات والفيلولوجيا كليهما لاختلاف المناهج والغايات. أما التجديد في كلّ ما تقدّم فبابه مفتوح

---

[7] انظر: بحث أستاذنا الدكتور مازن المبارك ((العربية هوية ونسب)) في مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (85)، الجزء الثاني لعام 2010م.

[8] انظر: كتابنا ((المدخل إلى فقه اللغة العربية))، ص22 وما يليها.

[9] انظر: بحثنا ((بين اللسانيات وعلوم اللغة))، (مرجع سابق)، ص986.

[10] انظر: المرجع السابق، ص985.

وهو استجابة لمنطق الحياة وسيرورتها، على أن يكون معتمداً على تحويل عناصر التراث إلى الحاضر بما تحمله من حيوية وجدوى وطاقة فيتحقق ((الإحياء))، مع تلقّي الجديد من العلوم والمعارف والمناهج الوافدة فتتجلى ((المعاصرة)) التي تغذّي الحاضر وتضبط التطوّر وتستشرف المستقبل باتصال وتسلسل ومن غير قطيعة معرفية أياً كان نوعها.

****

أما آثار اللسانيات التي عادت بالكثير من الرفد والمراجعة والكشف على درسنا اللغوي فليست قليلة، أو هيّنة، مع أنّ بعض شيوخنا ما زال يشكّك في جدواها ويسيء الظنّ بمناهجها. وأهمّ ما هو مستقرّ من آثارها وأوضحها ظهور ((اللغويات المقارنة)) ولا سيّما دراسات اللغات العروبية التي تُدعى لدى المستشرقين بالسامية[11]. ولا يماري أحد في مبلغ الحاجة إلى معرفة أصول اللغة العربية وأحوال أخواتها والوقوف على خصائصها القُدمى معرفة علمية تُستخلص من النقوش والوثائق. ولم تكن هذه المعرفة متاحة لأحد قبل اكتشاف اللغة الهندية القديمة عام (1786م)، والشروع في المنهج المقارن الذي استعان بعلم الآثار والفيلولوجيا لإعادة التفاسير القديمة إلى طريق العلم بعد أن جرت ملياً في طريق العصبية والرجم بالغيب. وبناءً على ما تقدّم ظهر تقسيم اللغات إلى أُسر لغوية دقيقة تقوم على القرابة والتشابه، ووصفت اللغات القديمة وصفاً علمياً. وهكذا ظهر موضوع اللغات العروبية القديمة بعد الاكتشافات الأثرية الكثيرة ووضع المعاجم المشتركة وحلّ رموز الكتابات المختلفة. وقد أُنشئ في هذه السبيل العشرات بل المئات من البحوث والرسائل الجامعية التي تقارن العربية بإحدى أخواتها مقارنة علمية تضاف نتائجها إلى درسنا اللغوي وتوسّع مجالاته.

ومن هذا النحو من الإضافة ظهور علوم لغوية جديدة منقولة عن اللسانيات أساساً كعلم اللغة الاجتماعي وعلم اللغة النفسي وعلم اللغة الجغرافي وعلم اللغة التربوي وعلم اللغة الحاسوبي وعلم أمراض الكلام وعلم اللغة الأنثربولوجي... إلخ، وهي علوم باتت ماثلة للعِيان بعد نقلها ودرسها والتأليف فيها ودخولها المناهج الجامعية. وكذلك مسّت اللسانيات معارفَ أخرى فجدّدتها، كفنّ الترجمة وتعليم اللغات وتصنيف المعاجم ونحو ذلك.

---

[11] ترجع تسمية ((سامية)) إلى عام (1781م) حين ذهب شلوتزر الألماني إلى استعمالها معتمداً على نصّ من التوراة، ثم شاعت شيوعاً واسعاً. لكنّ هذه التسمية ليست صحيحة علمياً. وقد ضاق بها الكثير من دارسينا واقترحوا بدائل لها ربما كان أصحّها (العروبية). انظر كتابنا: المدخل إلى فقه اللغة العربية، ص37–40.

أما على صعيد علوم اللغة العربية وحدها فظهر أثر اللسانيات في تجديد البحث في علم الأصوات وتعريفه ورفده، وكذلك في علم الدلالة والمعجم والمصطلح وعلم النصّ والأسلوبية ونحوها.

وأتاحت اللسانيات على صعيد المناهج وطرق التحليل اللغوي الكثير من الإمكانات للدارسين على اختلاف لغاتهم. من ذلك المنهج المقارن الذي ذكرنا ثماره التي وصلت إلى درسنا، والمنهج الوصفي على اختلاف مدارسه، والمنهج التاريخي التطوّري، والمنهج التقابلي الذي يُعنى بكشف الفروق بين لغة وأخرى لتسهيل تعليم اللغة لغير الناطقين بها. إضافة إلى المسالك المنهجية الأخرى كالبنيوية والتوليدية التحويلية والوظيفية وغيرها ممّا هو شائع في الدرس اللساني المعاصر.

وبعثت اللسانيات نشاطاً علمياً واسعاً في المصطلح ترجمةً وتعريباً. ولا يُماري أحد في هذا الجانب الذي أغنى علوم اللغة والمعجم على حدّ سواء. وقد شرع مجمع اللغة العربية بالقاهرة منذ عام (1962م) في إصدار مجموعات من المصطلحات اللغوية ولا سيّما مصطلحات علم الأصوات. وكذلك صدر عن مؤسسات أخرى مجموعات لسانية حديثة تعدّ بالمئات بل أكثر من ذلك. وقد شكّل الكثير من هذه المصطلحات معاجم مختصّة كمعاجم الأصوات واللسانيات النظرية والتطبيقية، إضافة إلى المعاجم اللسانية العامة. ويذكر في هذا الصّدد ما ألّفه محمد رشاد الحمزاوي وعبد الرسول شاني ومحمد علي الخولي وعبد السلام المسدّي وبسّام بركة ورمزي منير البعلبكي وغيرهم[12].

كما أثبتت اللسانيات الكثير من الآراء اللغوية التي كانت موضع تساؤل أو شكّ، وصحّحت بعض المسائل التي كانت تُعوزها الأدلة الثابتة. من ذلك أنّ اللسانيات الحاسوبية أكدت أفكاراً كثيرة للخليل بن أحمد الفراهيدي وغيره في الأبنية والذلاقة ومجاورة الحرف للحرف والتشكيل المخرجي وغير ذلك. وحقّقت آراء في الدرس الصوتي عن طريق المخابر الصوتية. كما أتاحت المجال للدارسين لإجراء إحصاءات حاسوبية للمصطلح وموادّ المعجم ونحوه. وينفرد موضوع ((المعرّب)) بجانب مهمّ من هذه الجوانب، إذ عُرضت مفردات المعرّب على المنهج المقارن الذي حدّد أصولها، وأوضح طرق نقلها، وصحّح الكثير ممّا وقع فيه القدامى، وأفضى إلى صورة شبه منتهية اعتماداً على المعرفة العلمية الدقيقة باللغات المنقرضة التي يرجع إلى بعضها عدد من أمثلة المعرّب.

وأثارت اللسانيات حركة ترجمة موّارة منذ أربعينيات القرن الماضي. وجعلت موضوع اللغة من الموضوعات التي تلقى الاهتمام لدى عامة المتعلّمين، ونافست بذلك الموضوعات الأدبية

---

[12] انظر: بحثنا ((اللسانيات إشكالية الاستمداد والتطبيق))، مجلة المنتدى، دبي، العدد (84) لعام 1990م.

كالروايات والموضوعات التاريخية والعلمية والسياسية وغيرها، ولا سيّما في عقد السبعينيات وما تلاه على وجه التقريب. وكانت بداية الترجمة في البيئات الأكاديمية كترجمات محمد مندور ومحمد القصّاص وعبد الحميد الدواخلي وعبد الرحمن أيوب وتمّام حسان وكمال بشر وصالح القرمادي وأحمد مختار عمر وبدر الدين القاسم والطيب البكوش ومجيد الماشطة وغير هؤلاء كثير[13]. لكنّ موضوع اللسانيات اتّسع نطاقه فامتدّ إلى المجلات والصحف والمؤتمرات والندوات والمحاضرات العامة. وصار لذلك من أكثر الموضوعات رواجاً لدى النقّاد والصحفيين والكتّاب على اختلاف اتجاهاتهم.

غير أنّ اللسانيات أثارت مشكلات تتّصل بدقّة الترجمة وصوغ المصطلح. ولا سيّما تلك الأعمال التي نهض بها الضعفاء من أهل الاختصاص والصحفيون من الباحثين عن كلّ رائج أياً كان. أما المختصون أنفسهم فقد صاروا نهباً للمدارس اللسانية، فتوزّعت اتجاهاتهم وتكاثرت مصطلحاتهم حتى وصل بهم الحال إلى ((أزمة)) كان جزء منها انعكاساً لأزمة اللسانيات لدى أصحابها الذين عانوا أيضاً من التشتّت وتداخل العلوم وبلبلة المصطلحات[14]. ولا شكّ في أنّ عقبات البحث اللساني العربي بدأت تتذلّل مع استقرار الدراسات العلمية نسبياً بعد مخاض عسير. فالتعارض بين النحو (العربي) واللسانيات، والتناقض بين المعيارية والوصفية، والاقتصار على اللهجات في الدرس اللساني، والتداخل بين فقه اللغة والفيلولوجيا، وغموض المصطلحات، والإقبال غير العلمي على موضوع اللسانيات، والمقارنات الجائرة بين اللسانيات وعلوم اللغة العربية عامة... صار ذلك كلّه إلى اضمحلال. والأمل كبير في أن تستوعب علومنا الفذّة كلّ ثمرات اللسانيات، وأن تعرّبها وتضيفها إلى مجالاتها كما فعلت في تطوّرها بالكثير من الأفكار والآراء، وكما فعلت ثقافتنا الحديثة في استيعاب العلوم وتوطينها وابتكار المصطلحات المناسبة لها.

وختاماً أقول: لا خوف على علومنا ولا على لغتنا ما دمنا نملك قرارنا العلمي وننطلق من هويتنا ونلبّي حاجات مجتمعاتنا، ونحافظ أولاً وأخيراً على ((الفصحى)) التي هي شجرتنا المباركة التي يجب أن تُساق لخدمتها كلّ الجهود وتبذل جميع الطاقات، فهي في حياتنا الوجهُ واللسان، وفي أوطاننا الرابطةُ والعنوان.

والسلام عليكم ورحمة الله وبركاته. وشكراً لحضوركم وحسن استماعكم.

---

[13] انظر: بحثنا السابق، ص18-23.

[14] انظر: عبد السلام المسدّي، اللسانيات وأسسها المعرفية، ص11-20.

{المصادر والمراجع}

أولاً: الكتب

– قاموس اللسانيات، عبد السلام المسدّي، الدار العربية للكتاب، تونس 1984م.

– القدس دمشق القدس، حسام الخطيب، اتحاد الكتاب العرب بدمشق 1980م.

– اللسانيات وأسسها المعرفية، عبد السلام المسدّي، الدار التونسية للنشر بتونس والمؤسسة الوطنية للكتاب بالجزائر 1986م.

– المدخل إلى فقه اللغة العربية، أحمد محمد قدور، المطبوعات الجامعية، كلية الآداب بجامعة حلب 2006م.

ثانياً: البحوث

– ((بين اللسانيات وعلوم اللغة)) لأحمد محمد قدور، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (85)، الجزء الرابع لعام 2010م.

– ((العربية هوية ونسب)) لأستاذنا الدكتور مازن المبارك، مجلة مجمع اللغة العربية بدمشق، المجلد (85)، الجزء الثاني لعام 2010م.

– ((اللسانيات: إشكالية الاستمداد والتطبيق)) لأحمد محمد قدور، مجلة المنتدى، دبي، العدد (84) لعام 1990م.

– ((من أثر اللسانيات في الدرس اللغوي العربي ومناهجه)) لأحمد محمد قدور، المجلة العربية للعلوم الإنسانية، الكويت، العدد (27) لعام 1987م.